العرب الأسبوعي Saturday 2008/1/12 السبت

الغريزة والتعلم والبيئة

بين علم النفس وعلم اللغة: كيف يكتسب الطفل لغته «الأم»؟

❑ د. علي القاسمي

تنتمي الدراسات المتعلّقة باكتساب الطفل أوّل لغة، وهي عندنا، عادة، اللهجة العاميّة، إلى مجال علم النفس. وأما إكتساب اللغة الثانية أو الأجنبية الذي يعني تعلّم أيّة لغة أخرى بعد مرحلة الطفولة المبكرة، فهو من مباحث علم اللّغة التطبيقيّ. بيد أن تعلّم اللغة العربية الفصحى وتعزيزه يدخل في مجال التخطيط اللغويّ الذي هو علم مشترك يتطلب إجراء بحوث اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة ولغويّة.

ونظراً لحداثة علم اللغة وعلم النفس، فإنّ مدلول بعض مصطلحاتهما يختلف من مدرسة فكريّة إلى أخرى، بل يتباين من باحث إلى آخر في المدرسة الواحدة. فمصطلحات مثل "اللغة الأولى" و "اللغة الأهليّة" و"اللغة الرئيسة" و "اللغة الأم" و "لـ 1" لم تخضع إلى تقييس أو توحيد بعد، وهي تدلّ في كثير من أدبيات علم اللّغة على اللّغة الأولى التي يتعلّمها الطفل. ويُعدّ الفرد من الناطقين بتلك اللغة، على الرغم من أنّه يمكن أن يُعدّ من الناطقين بعدد من اللغات إذا كان قد تعلّمها بلا دراسة رسمية وإنّما بطريقة طبيعيّة في العائلة أو المجتمع، كما يحصل لدى الطفل المزدوج اللّغة من أبوين يتكلّمان لغتيْن مختلفتيْن أو لدى طفل يعيش في بيئة متعدّدة اللّغات.

ومن ناحية أخرى، فإنّ مصطلحَي "اللغة الثانية" و"اللغة الأجنبيّة" يُستعمَلان، أحياناً، بوصفهما مترادفيْن يدلان على لغة أخرى يتعلّمها الفرد في المدرسة بعد مرحلة الطفولة المبكّرة. ويُستعمَل مصطلح " اللغة الأولى"، أحياناً، ليدلّ على اللّغة التي يُتقنها الفرد أفضل من غيرها. وهكذا قد يشير الفرد إلى لغته الأولى، ولغته الثانية، ولغته الثالثة طبقاً لدرجة إتقانه لهذه اللّغات. ويَستعمل بعضهم مصطلح " اللغة الأهلية" للدلالة على اللغة التي يتكلمها الفرد بطلاقة تضاهي طلاقة أهلها في بلدهم.

ومن ناحية ثالثة، فإنّ هنالك من اللغويّين من يعدّ اللهجة العربيّة العاميّة والعربية الفصحى لغتيْن مختلفتيْن، بحيث يخضع تعلم اللغة العربيّة الفصحى إلى نواميس تعلم اللّغة الثانية، على حين يرى لغويّون آخرون أنّ العاميّة والفصحى هما مستويان من مستويات لغة واحدة.

أما مصطلح "اكتساب اللغة" فيشير عموماً إلى العمليّة التي تنمو بها القدرة اللغويّة لدى الإنسان. ويشير مصطلح "اكتساب اللّغة الأولى" إلى نمو اللغة لدى الأطفال، على حين أن مصطلح "اكتساب اللّغة الثانية" يتعلّق بنمو اللّغة لدى البالغين كذلك.

وهنا سنستخدم مصطلح "لغة الأم" للإشارة إلى أوّل لغة يتعلمها الطفل في البيت، ونفترض أنّها العربيّة العاميّة، التي تُستخدَم في التواصل الاعتياديّ في المنزل والشارع.

العربيّة الفصحى ولهجاتها العامّيّة

معروف أنّ اللّغة العربيّة تعاني حالة ازدواجية لغويّة، شأنها شأن اللغات الكبرى الأخرى. وكان اللّغويّ الأمريكيّ تشارلس فرغيسون أوّل من درس ظاهرة الازدواجيّة في عدد من اللغات من بينها العربيّة وعرّف هذه الظاهرة بأنّها:

"وضع مستقرّ نسبيّاً توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الرئيسة للّغة (التي قد تشتمل على لهجة واحدة أو لهجات إقليمية متعددة) لغة تختلف عنها، وهي مقنّنة بشكل متقن (إذ غالباً ما تكون قواعدها أكثر تعقيداً من قواعد اللهجات)؛ وهذه اللغة بمثابة نوع راق، يُستخدَم وسيلةً للتعبير عن أدب محترم، سواء أكان هذا الأدب ينتمي إلى جماعة في عصر سابق، أم إلى جماعة حضاريّة أخرى، ويتمّ تعلّم هذه اللغة الراقية عن طريق التربية الرسميّة، ولكن لا يستخدمها أيُّ قطاع من الجماعة في أحاديثه الاعتياديّة." (1)

ويتفق جميع اللغويّين العرب مع فيرغسون على أنّ العاميّات العربيّة هي ليست لغات مستقلّة عن العربيّة الفصحى، وإنّما لهجات جغرافيّة أو اجتماعية أصابها شيء من التغيير (أو التحريف) في بعض ألفاظها وبنياتها ودلالاتها، وأنّ الفصحى أغنى من العاميات في مفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها، وأنّ قواعدها أكثر تطوّراً وتقنيناً، وأوسع انتشاراً جغرافياً. ولهذا فإنّ الفصحى، وليست العاميّات، هي التي تصلح أداةً فاعلة للتفكير المجرد، واكتساب المعرفة، والتواصل مع التراث، والتراكم الثقافيّ، وأساساً للتعاون بين جميع أقطار العروبة.(2)

وهذه الإزدواجيّة اللّغويّة ظاهرةٌ كذلك في قضيّة اكتساب اللّغة لدى الطفل العربيّ. فلأن لغة البيت هي اللهجة العاميّة فإنّ الطفل يكتسب العاميّة بوصفها لغة الأم خلال السنوات الخمس الأولى من حياته ثم يأخذ في تعلم العربية الفصحى في روضة الأطفال أو المدرسة. هذا إذا كان محظوظاً ودخل المدرسة.

ولهذا فعندما نتحدّث في هذه الدراسة عن "اكتساب لغة الأم" أو "اكتساب اللّغة الأولى"، فإنّنا نعنى اكتساب الطفل اللهجة العاميّة، ونطاقه الدراسات النفسيّة. أما تعزيز تعلّم اللّغة العربيّة الفصحى، فإنّ نطاقه التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية.

سلوك الطفل يعكس بيئته

اكتساب اللغة طبع أم تطبّع؟

لم يعُد خلافُ اليوم حول ما إذا كانت اللغة طبعاً أم تطبُّعاً، أي ما إذا كانت ظاهرة غريزيّة تلقائيّة أم اكتساباً من البيئة الاجتماعيّة. فجميع الباحثين متّفقون على أنّ اللّغة تُكتسَب اكتساباً، ويؤكّدون أهمّيّة العاملين البيولوجيّ والاجتماعيّ في عملية الاكتساب. ولكنّهم يختلفون حول ما إذا كان العامل البيولوجيّ يتضمّن قابليّة لغويّة فطريّة مخصوصة أم لا، أي ما إذا كان اكتساب اللغة يتمّ بمساعدة استعداد لغويّ موروث أم لا. وإذا كان ذلك الاستعداد الفطريّ موجوداً فعلاً لدى الطفل عند ولادته، فما هي نسبة تأثيره في اكتساب اللّغة؟ ويشتدّ الخلاف بين الماديّين والعقلانيّين حول هذا السؤال الأخير.

العقلانيّون واكتساب اللّغة

يميّز العقلانيّون بين ما هو عقليّ وما هو جسديّ. ويعدّون النشاط اللغويّ نشاطاً عقليّاً. فاللّغة ظاهرة إنسانيّة اجتماعيّة ولا يمكن اعتبارها مجرّد فعل ماديّ أو حيواني. ويفترضون أنّ الطفل يولد وهو مزوّد باستعداد لغويّ فطريّ مخصوص يُعينه على اكتساب اللّغة.

يرى نعوم تشومسكي أنّ اللغة مهارة خاصّة وأنّ القدرة على تعلمها موجودة في موروثنا الجينيّ. وأنّ الطفل يولد وهو مزوّد بقدرة لغويّة خاصّة أو برنامج داخليّ يمكّنه من اكتساب اللّغة دون تدخل مباشر من الوالديْن أو المعلمين؛ وأنّ تلك القدرة اللغويّة الفطريّة التي تولَد مع الطفل تمكّنه من الابتكار اللغويّ. يقول تشومسكي: "في حالة اللغة، ينبغي أن نشرح كيف يتمكّن الفرد الذي يحصل على بيانات محدودة، من تطوير نظام معرفي غنيّ جداً. فالطفل عندما يوضع في بيئة لغوية، يسمع مجموعة من الجمل التي غالباً ما تكون غير تامة، ومتشظية، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من ذلك كله ينجح - خلال وقت قصير جداً - في" بناء" أو تمثل قواعد تلك اللغة، وتطوير معرفة معقّدة جداً، لا يمكن استخلاصها بالاستنباط ولا بالتجريد مما حصل عليه من خبرة. نستنتج أن المعرفة المتمثلة داخلياً لا بدّ أنها محدّدة بدقة من طرف مَلَكة بيولوجية ما." (3)

وقد قام أحد مؤيدي تشومسكي وهو ديريك بكيرتون .D Bickerton ببحث معمّق حول كيفية تحوّل اللّغة الهجينة Pidgin التي كانت موجودة في هايتي إلى لغة الكريول. فقد كان العمال القادمون إلى هايتي من الصين واليابان وكوريا والبرتغال والفلبين وبورتريكو، يستخدمون تلك اللّغة الهجينة، وهي مزيج من الإنجليزيّة ولغات أولئك العمال. وتمتاز بمفردات محدودة في عددها، بسيطة في تراكيبها، ولا يتّبع ترتيبُ المفردات في الجملة نظاماً معيّناً، بل يختلف تقديم المفردات وتأخيرها في الجملة من متكلّم إلى آخر. وأدعى الباحث بكيرتون أنّ أطفال أولئك العمّال قاموا بتحويل تلك اللّغة الهجينة إلى لغة الكريول. ويزعم بكيرتون أنّ التحوّل قد تمّ عندما أخذ الأطفال يُغْنون مفردات اللّغة الهجينة وتراكيبها بصورة تلقائيّة ويطوّرونها، حتّى أصبحت لغة كاملة سمّيت بـ الكريول. ويستدلّ أتباع تشومسكي من ذلك البحث أن اكتساب اللغة - على الأقل فيما يخصّ اكتساب لغة الأمّ - يتضمّن شيئاً من الخلق والابتكار اللغويّ بفضل القدرة اللغويّة الفطريّة التي تولد مع الطفل. (لاحظ أن بحث بكيرتون لاقى نقداً شديداً) (4).

أمّا منتقدو تشومسكي فيسوقون الحجج التالية لتفنيد نظريّته:

(1) إن تشومسكي يفرّق بين القدرة والأداء. والأداء هو التحقّق الفعليّ للقدرة اللغويّة الفطريّة عند المتكلّمين، من خلال ما يقولونه فعلاً. وأقوالهم غالباً ما لا تتّفق مع قواعد اللّغة؛ على حين أنّ ما يغرفونه بالغريزة أو بالفطرة عن قواعد لغتهم يتفق مع النحو الكلّيّ Universal Grammar، أي الآليّات الضروريّة والمشتركة في كلّ اللّغات. والمشكلة هي أنّ تشومسكي يعتمد على حدس الناس بشأن ما هو صحيح وما هو خطأ. ولكنّ الناس لا يتفقون على ذلك الشأن. وأنّ أحكامهم في هذا الخصوص تعكس أداءهم، أي الطريقة الفعليّة التي يستعملون بها اللغة.

(2) يميّز تشومسكي بين النحو المركزيّ وبين النحو الهامشيّ للّغة. والنحو المركزيّ هو ما يتفق عليه جميع الناس وهو يتلاءم مع النحو الكلّيّ. ولكن تكمن المشكلة في كيفيّة التمييز بين ما هو من القواعد المركزيّة وبين ما هو من القواعد الهامشيّة. فهناك من اللغويين مَن يرى أنّ جميع النحو هو تواضعيّ اتفاقيّ، وليس هنالك سبب لإجراء هذا التمييز الذي يقترحه تشومسكي بين القواعد المركزيّة والقواعد الهامشيّة.

(3) يبدو أن تشومسكي يعدّ المعنى والسياق الاجتماعيّ الذي تُستعمَل فيه اللّغة، من الأمور الثانوية، ولهذا فإنّه لا يأخذ في النظر الظروف أو السياقات التي يكتسب فيها الطفل لغة الأم (5).

وخلاصة القول إنّ تشومسكي يرى أنّ الطفل مستقلّ بذاته من حيث اكتساب اللغة وابتكارها. إنّه مبرمَج داخليّاً ليتعلّمها ولا يحتاج إلا إلى القليل من الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة الملائمة.

الماديون واكتساب اللغة

يرى الماديّون أنّ العقل هو مجرّد امتداد للجسد ولا يختلف عنه إلا في صعوبة ملاحظة نشاطه من قِبَلنا. ويرون أنّ النشاط الإنسانيّ، ومنه النشاط اللّغويّ، هو سلسلة ماديّة من تعاقب السبب والنتيجة؛ وأنّ الظاهرة اللغويّة يمكن دراستها مختبريّاً في نطاق التجارب العلميّة المتعلّقة بالمُثير والاستجابة؛ وهي نفس التجارب التي تُجرَى على الحيوانات. ولهذا فهم يفترضون أنّ اكتساب اللغة يتمّ فقط من خلال التفاعل بين قدراتنا العقليّة ومحيطنا الاجتماعيّ.

ولعل من أبرز مُمثّلي هذا التيار عالم النفس جيروم برونر Jerome Bruner الذي لا ينكر وجود قدرة لغويّة موروثة لدى الطفل. ولكن لكي يكسب الطفل اللغة الأمّ، فإنّه يحتاج إلى بيئة لغويّة مناسبة. وإذا كان بالإمكان تسمية القدرة اللغوية الموروثة بآلية اكتساب اللغة، فإنّ البيئة اللغوية اللازمة لاشتغال تلك الآلية يمكن تسميتها بنظام إسناد أو تعضيد اكتساب اللغة. وهذا النظام يتجسّد بالعائلة التي تشجّع الطفل على الكلام، بل تتيح له الفرص الكثيرة لاكتساب اللّغة، أثناء تغذيته أو تنظيفه أو اللعب معه.

❑❑ في حوالي السنة الخامسة من العمر يكون الطفل قد اكتسب لغة الأم التي يتواصل بها مع أهله في المنزل وأقرانه في اللعب. ولكنّ هذه اللّغة هي العربيّة العاميّة. وهي لا تؤهّل الناطق بها للنفاذ إلى مصادر المعلومات وامتلاك المعرفة ❑❑